٧١ – باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

قَالَ الله تَعَالَى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: ٢١٥]، وقال تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤]، وقال تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: ١٢]، وقال تَعَالَى: {فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢]، وقال تَعَالَى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عنكم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٨ – ٤٩].

==========

قَالَ الله تَعَالَى (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

هذا إرشاد منه سبحانه لنبيه ﷺ إلى كيفية معاملته لأتباعه.

وخفض الجناح: كناية عن التواضع. واللين، والرفق، في صورة حسية مجسمة، إذ من شأن الطائر حين يهبط أو حين يضم صغاره إليه أن يخفض جناحه، كما أن رفع الجناح يطلق على التكبر والتعالي .

أي : وكن –أيها الرسول الكريم– متواضعا لين الجانب، لمن اتبعك من المؤمنين، ولقد كان النبي ﷺ سيد المتواضعين مع أصحابه، إلا أن الآية الكريمة تعلم المسلمين في كل زمان ومكان –وخصوصاً الرؤساء منهم– كيف يعامل بعضهم بعضا.

قال السعدي : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل صلى الله عليه وسلم، ذلك كما قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم ، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له.

وقال القرطبي في قوله تعالى (وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) أَيْ : أَلِنْ جَانِبَكَ لِمَنْ آمَنَ بِكَ وَتَوَاضَعْ لَهُمْ، وَأَصْلُهُ أَنَّ الطَّائِرَ إِذَا ضَمَّ فَرْخَهُ إِلَى نَفْسِهِ بَسَطَ جَنَاحَهُ ثُمَّ قَبَضَهُ عَلَى الْفَرْخِ، فَجُعِلَ ذَلِكَ وَصْفًا لِتَقْرِيبِ الْإِنْسَانِ أَتْبَاعَهُ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ خَافِضُ الْجَنَاحِ، أَيْ وَقُورٌ سَاكِنٌ، وَالْجَنَاحَانِ مِنَ ابْنِ آدَمَ جَانِبَاهُ، وَمِنْهُ، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِك.

من فوائد الآية :

١–الحث على التواضع ، فخفض الجناح رمز التواضع .

٢–أن القيادة لا تعني الغطرسة والتكبر والتسلط .

٣–أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يكون لطيفاً رحيماً مع المؤمنين .

٤–الحث على خلق اللين والرفق .

٥–الاهتمام بالمؤمنين وحقوقهم .

وقال تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...) أي: من يرجع عن الحق إلى الباطل.

فقد اختلف المفسرون في تحديد الردة المقصودة، ومَنْ يكون هؤلاء القوم؟ وقد أطال فيها المفسرون الكلام، وسنُشِير إلى طَرَفٍ منه مع الوقوف على القول الصحيح. فقد قال البغوي: "قال الحسن: عَلِمَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن قوماً يرجعون عن الإسلام بعد موت نبيهم ﷺ فأخبر أنه يأتي بقوم يحبهم ويحبونه، واختلفوا في أولئك القوم مَنْ هم؟ فقيل أبو بكر وأصحابه، وقيل: هم الأشعريون، وقيل: هم أحياء من اليمن". وذكر ابن الجوزي في (زاد المسير) ستة أقوال في المراد بالقوم في الآية.

واختلفوا في تحديد الردة المقصودة على أقوال كثيرة. حتى إنهم أحصوا الردة التي حصلت في عهد الرسول ﷺ وفي عهد أبي بكر.

والصحيح أن الآيةَ شاملةٌ لجميع ما ذكروه، حيث إنها مِنْ ذِكْرِ المغيبات وكل ردة حصلت وقُمعت وانتصر المسلمون بعدها فهي داخلةٌ ضمن هذه الآية، ولا وجه لتقييد قوم دون آخرين، أو تخصيص ردة دون غيرها، وهذه الآية باقية إلى قيام الساعة، جارٍ العمل بها، وهي منبع الطائفة المنصورة، منها يشربون نهلاً بعد عللٍ.

قال ابن عطية: "قال الحسن بن أبي الحسن ومحمد بن كعب القرظي والضحاك وقتادة: نَزلتِ الآيةُ خِطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة". وقال الطاهر بن عاشور: " فكل أمة أو فريق أو قوم تَحَقَّقَ فيهم الوصفُ فهم مِنِ القوم المنوه بهم". وقال شيخ الإسلام: "وهذه حال من قاتل المرتدين وأولهم الصديق ومن اتبعه إلى يوم القيامة".

- وإن هذه الآية جاءت في سياق التحذير من موالاة اليهود والنصارى، وإن ذلك سبب في الردة، وإذا ارتدوا فإنهم ليسوا بأهلٍ لنصرة الدين،

قال القاسمي: " لما نهى تعالى -فيما سلف- عن موالاة اليهود والنصارى، وبَيّنَ أن موالاتهم مستدعية للارتداد عن الدين بقوله: "فَإِنَّهُ مِنْهُمْ" (المائدة: من الآية٥١) وقوله: "حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ" (المائدة: من الآية٥٣) شرع في بيان حال المرتدين على الإطلاق ونوه بقدرته العظيمة، فَأَعْلَمَ أنه مَنْ تولى عن نُصْرَةِ دينه وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدل به من هو خيرٌ لها منهم، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً.

قال ابن تيمية: وَأَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِ اللَّهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بَدَلَهُ بِمَنْ يُقِيمُ دِينَهُ الْمُبِينَ.

- قال السعدي: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ...) يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن لله عباداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدايتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافا، وأقواهم نفوسا، وأحسنهم أخلاقاً. (السعدي)

- قال في التسهيل (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ) خطاب على وجه التحذير والوعيد، وفيه إعلام بارتداد بعض المسلمين فهو إخبار بالغيب قبل وقوعه، ثم وقع.

- قال ابن عاشور: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ ...) تقضَّى تحذيرهم من أعدائهم في الدّين، وتجنيبهم أسباب الضعف فيه، فأقبل على تنبيههم إلى أنّ ذلك حرص على صلاحهم في ملازمة الدّين والذبّ عنه، وأنّ الله لا يناله نفع من ذلك، وأنّهم لو ارتدّ منهم فريق أو نَفَر لم يضرّ الله شيئاً، وسيكون لهذا الدّين أتباع وأنصار وإن صدّ عنه من صَدّ، وهذا كقوله تعالى (إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر)، وقوله (يمنّون عليك أن أسلموا قل لا تمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين). (قاله ابن عاشور)

وقال رحمه الله: فجملة (يا أيّها الّذين آمنوا من يرتدد منكم) الخ معترضة بين ما قبلها وبين جملة (إنّما وليّكم الله)، دعت لاعتراضها مناسبة الإنذار في قوله (ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم) فتعْقِيبُها بهذا الاعتراض إشارة إلى أنّ اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء ذريعة للارتداد، لأنّ استمرار فريق على مُوالاة اليهود والنّصارى من المنافقين وضعفاء الإيمان يخشى منه أن ينسلّ عن الإيمان فريق. وأنبأ المتردّدين ضعفاء الإيمان بأنّ الإسلام غنيّ عنهم إن عزموا على الارتداد إلى الكفر.

– في الآية التحذير من الردة.

(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أن من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلاً .

كما قال تعالى (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) وقال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ)، وقال تعالى (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) أي: بممتنع ولا صعب.

قال السعدي: قوله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) وفي صفة النبي ﷺ أنه (الضحوك القتال) فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

وبهذا أمر الله نبيه ﷺ ، فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله (واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ).

وقوله (واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين).

وأمَره بالقسوة على غيرهم بقوله (يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير).

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِك) الآية.

وصرح بأن ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، بقوله (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُم).

– قال السعدي: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله – أعزة، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) وقال تعالى (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

– وليس المراد بكونهم أذلة هو أنهم مهانون، بل المراد المبالغة في وصفهم بالرفق ولين الجانب، فإن من كان ذليلاً عند إنسان فإنه ألبتة لا يظهر شيئاً من التكبر والترفع، بل لا يظهر إلا الرفق واللين فكذا ههنا، فقوله (أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين) أي يظهرون الغلظة والترفع على الكافرين.

قال ابن عباس: هم للمؤمنين كالوالد لِلولد والسيد للعبد، وهم في الغلظة على الكفار كالسبعُ على فريسته؛ قال الله تعالى (أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ).

من فوائد الآية :

١ – الإشارة إلى أن من المؤمنين من سيرتد.

٢ – التحذير من الردة.

٣ – أن الله غني عن العباد.

٤ – إثبات المحبة من الله.

٥ – فضل التواضع للمؤمنين.

٦ – ذم الكبْر على المؤمنين.

٧ – الثناء على القوة على الكافرين.

٨–تطمين لقلوب المؤمنين .

٩–تعزيز الشعور بالقوة والكرامة لدى المؤمنين .

١٠–التحذير من اليأس عند الضعف .

١١–دلالة على حتمية انتصار الحق مهما طال الزمن أو كثر الأعداء .

وقال تَعَالَى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ) .

يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيرا ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا .

(**لِتَعَارَفُوا**) وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك، التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب .

(**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) أي : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب ، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا .

وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ :

عن أبي هريرة قال: (سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: "أكرمهم عند الله أتقاهم" قالوا: ليس عن هذا نسألك . قال: "فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله". قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: "فعن معادن العرب تسألوني؟" قالوا: نعم. قال: "فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا") متفق عليه .

وعنه . قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) رواه مسلم .

من فوائد الآية :

١–وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب، مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل ذلك.

٢–أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

٣-أن العبرة بالتقوى والإيمان لا بالأنساب ولا الأحساب ، وفي الحديث : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجساكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

٤-الحسب الحقيقي تقوى الله .

٥-التأكيد على أصل الإنسانية الواحد، جميع البشر خلقوا من نفس الأصل، ذكراً وأنثى، مما يرسخ مبدأ المساواة بينهم ويقضي على فكرة التعالي أو التفاضل الجسري.

٦-الإقرار بالتنوع الإنساني كحقيقة طبيعية ومقصد حكيم، إذ أن الله خلق الناس شعوباً وقبائل، وهذا التنوع ليس سبباً للفرقة بل لغاية إيجابية وهي التعارف والتعاون.

٧-تشجيع التعارف والتآلف بين الشعوب المختلفة، فالغرض من خلق الشعوب والقَبائل هو أن يتعارفوا ويتواصلوا، وهذا يعزز المحبة والتآخي ويكسر الحواجز الاجتماعية والثقافية.

٨-رفض كل أشكال العنصرية والتعصب القومي أو القبلي: لأن التفاضل الحقيقي عند الله ليس بناءً على العرق أو اللون أو الجنس، بل على التقوى والخلق الحسن.

٩-رفع قيمة التقوى فوق كل اعتبار دنيوي آخر، فالميزان الحقيقي لتقدير الناس عند الله هو تقواهم، أي خشيتهم له والتزامهم بأوامره واجتناب نواهيه.

١٠-تحفيز كل فرد على بذل الجهد في زيادة تقواه، لأن التقوى هي مفتاح الكرامة والفضل عند الله، وهذا يحث الإنسان على العمل الصالح والابتعاد عن المعاصي.

١١-تبسيط مفاهيم الكرامة والفضل بعيداً عن المفاهيم الدنيوية الزائلة، فالأكرم عند الله هو أتقاهم، وليس الأغنى أو الأقوى أو الأجمل.

وقال تَعَالَى (فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) .

(فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ) أي : تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم .

قال القرطبي : أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع .

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً .

وقد قال تعالى في سورة النساء (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) .

(بلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) أي: المرجع في ذلك إلى الله عز وجل، لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامِضها.

قال الشوكاني: قوله تعالى (بَلِ الله يُزَكّى مَن يَشَاء) أي: ذلك إليه سبحانه، فهو العالم بمن يستحق التزكية من عباده، ومن لا يستحقها، فليدع العباد تزكية أنفسهم، ويفوضوا أمر ذلك إلى الله سبحانه، فإن تزكيتهم لأنفسهم مجرد دعاوى فاسدة تحمل عليها محبة النفس، وطلب العلوّ والترفع والتفاخر ومثل هذه الآية قوله تعالى (فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى).

من فوائد الآية :

١-الحث على التواضع وعدم الاغترار بالأعمال الصالحة، فالعبد مهما عمل فهو محتاج إلى رحمة الله.

٢-النهي عن تزكية النفس .

٣-أن حقيقة التقوى يعلمها الله وحده: فقد يظهر الإنسان الصلاح أمام الناس، بينما الله يعلم السرائر والنيات، ولذلك قال (هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى).

٤-الحث على الإخلاص: فالمؤمن يعمل ابتغاء مرضاة الله، لا طلبًا لمدح الناس أو تزكيتهم.

٥-عدم الحكم على الناس بمجرد الظاهر: كما لا يزكي الإنسان نفسه، لا ينبغي أن يجزم بتقوى غيره، لأن العلم الكامل بحقيقة القلوب عند الله.

٦-الخوف من الرياء والعجب: فإظهار الأعمال بقصد الثناء أو الإعجاب بالنفس من الآفات التي تحبط أجر العمل أو تنقصه.

٧-التقوى محلها القلب؛ وأصلها إخلاص النية لله، وليس مجرد المظاهر أو الأقوال.

٨-أن العبرة بالخواتيم، فقد يكون الإنسان صالحًا اليوم ثم يتغير حاله، لذلك لا يجزم لنفسه بالتقوى.

٩-الحث على محاسبة النفس؛ فبدل الانشغال بمدح النفس، ينشغل المؤمن بإصلاحها ومراجعة تقصيرها.

١٠-سد باب الكِبر والعُجب؛ لأن تزكية النفس من أسباب الترفع على الخلق.

١١-تعليم الأدب مع الله؛ فلا يدّعي العبد لنفسه منزلة عند الله، بل يرجو رحمته ويخاف عذابه.

وقال تَعَالَى (وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عنكم جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) .

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً) من الكفار.

(يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) أي: بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه، وظهور الذلة على وجوههم. أو يعرفونهم بصورهم التي كانوا يعرفونهم بها في الدنيا.

(قَالُوا) لهم تبكيتاً وتوبيخاً.

(مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ) أي: ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم في الأرض بغير الحق. فقد صرتم في الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين.

قال الشوكاني: قوله تعالى (ما أغنى عنكم جمعكم) الذي كنتم تجمعون للصد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ.

- فِي هذه لْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ قَالُوا لِرِجَالٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ: يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَمْ يَنْفَعْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ، وَلَا كَثْرَةُ جَمَاعَتِكُمْ وَأَنْصَارِكُمْ، وَلَا اسْتِكْبَارُكُمْ فِي الدُّنْيَا.

وَبَيَّنَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ وَجْهَ ذَلِكَ: وَهُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُحْشَرُ فَرْدًا، لَا مَالَ مَعَهُ، وَلَا نَاصِرَ، وَلَا خَادِمَ، وَلَا حَوَلَ. وَأَنَّ اسْتِكْبَارَهُ فِي الدُّنْيَا يُجْزَى بِهِ عَذَابَ الْهُوْنِ فِي الْآخِرَةِ، كَقَوْلِهِ (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)، وَقَوْلِهِ (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)، وَقَوْلِهِ (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) وَقَوْلِهِ (فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ). (أضواء البيان).

(أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) ثم زادوا على هذا التبكيت، وهو قولهم (أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ) فأشاروا إلى فريق من أهل الجنة، كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم، وربما هزؤوا بهم، وأنفوا من مشاركتهم في دينهم، فإذا رأى من كان يدعي التقدم حصول المنزلة العالية لمن كان مستضعفاً عنده قلق لذلك، وعظمت حسرته وندامته على ما كان منه في نفسه.

- **قال الشوكاني:** قوله تعالى (أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ) هذا من كلام أصحاب الأعراف، أي قالوا للكفار مشيرين إلى المسلمين الذين صاروا إلى الجنة هذه المقالة، وقد كان الكفار يقسمون في الدنيا عند رؤيتهم لضعفاء المسلمين بهذا القسم، وهذا تبكيت للكفار وتحسير لهم.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يكون خطاباً من الله لأهل الأعراف، وقد ذكرناه.

والثاني: أن يكون خطاباً من الله لأهل الجنة.

والثالث: أن يكون خطاباً من أهل الأعراف لأهل الجنة، ذكرهما الزجاج.

فعلى هذا الوجه الأخير، يكون معنى قول أهل الأعراف لأهل الجنة (ادخلوا الجنة) اعلوا إلى القصور المشرفة، وارتفعوا إلى المنازل المنيفة، لأنهم قد رأوهم في الجنة. (زاد المسير).

من فوائد الآية :

١-أن لأهل الجنة سيما، ولأهل النار سيما يعرفون بها.

٢ - شدة عذاب أهل النار.

٣ - أن من عذاب أهل النار العذاب النفسي.

٤ - على المسلم أن يدعو الله أن ينجيه من طريق الظالمين.

٥ - شدة حسرة أهل النار يوم القيامة.

٦ - في يوم القيامة لا ينفع مال ولا كثرة، وإنما ينفع الإيمان والعمل الصالح.

٧ - خطر الاستكبار.

٦٠١ - وعن أَبي هريرة ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زادَ اللهُ عَبْدًا بعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ) رواه مسلم.

==========

الحديث تقدم شرحه : ٥٥٥

١-وهو دليل على فضل التواضع وأنها سبب للرفعة .

قال النووي: قوله ﷺ (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا.

قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم. (شرح نووي)

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- وقوله (وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعهُ اللهُ) أي: رَفَعَ قَدْرَه في القُلوب؛ لإخلاصه في التواضع.

وقال الصنعاني -رحمه الله- وفي قوله (وما تواضعَ أحدٌ للهِ) أَي: لأجل ما أعدَّه الله للمتواضعين، «إلَّا رَفَعَهُ اللهُ»: دليلٌ على أنَّ التواضع سبب للرِّفعةِ في الدَّارين لإطلاقه.

٢-فضائل التواضع :

سبب للرفعة.

لقوله ﷺ (من تواضع لله رفعه الله) .

وهو من صفات عباد الرحمن.

قال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا).

قال ابن كثير: هذه صفات عباد الله المؤمنين (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كما قال (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا). فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر.

قال السعدي: فوصفهم بأنهم (يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده.

ويورث المحبة.

قيل: التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

قال ابن حبان: ... والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة، كما أن ثمرة القناعة الراحة، وإن تواضع الشريف يزيد في شرفه، كما أن تكبر الوضيع يزيد في ضعته.

والتواضع من أخلاق الأنبياء وشِيَم النبلاء.

فهذا موسى عليه السلام رفع الحجرَ لامرأتين أبوهما شيخٌ كبير.

وداود عليه السلام كان يأكل من كَسب يده.

وزكريّا عليه السلام كان نجّارًا.

وعيسى عليه السلام يقول (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا).

وما مِن نبيّ إلاّ ورعى الغنم، ونبيّنا ﷺ .

والتواضعُ سبَب العدلِ والأُلفة والمحبّة في المجتمع.

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (إِنَّ اَللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

٣-من أقوال السلف في التواضع :

قال الشافعي: لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح.

وقال عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرّية في القناعة

قال أبو بكر رضي الله عنه: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "إنكم لمغفلون، أفضل العبادة: التواضع .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ *** على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه *** إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

قال ابن الحاج رحمه الله: من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدرِ النزولِ، ألا ترى أن الماءَ لما نزلَ إلى أصلِ الشجرةِ صعدَ إلى أعلاها فكأن سائلاً سأله: ما صعدَ بِكَ هنا -أعني في رأس الشجرة- وأنت تحت أصلها؟ فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه.

قال ابن قتيبة: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

قال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع.

قال بعض الحكماء: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبّر.

قال الشافعي : التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة .

وقال عامر بن عبد الله: من تواضع تخشعاً رفعه الله ومن تكبر تعظماً وضعه الله.

قال بعض الحكماء: البلية التي لا يؤجر عليها المبتلى بها: العجب، والنعمة التي لا يحسد عليها: التواضع.

قال الغزالي: يقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه.

وقال الذهبي في السير وإيثار الخمول والتواضع، وكثرة الوجل من علامات التقوى والفلاح.

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ---- فإن رفيعَ القوم من يتواضع

قال ابن حبان: الواجب على العاقل لزوم التواضُع ومجانبة التكبُّر، ولو لم يكن في التواضُع خصلة تُحمَد إلا أن المرء كلما كثر تواضُعه، ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه ألَّا يتزيَّا بغيره، والتواضُع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نُبْلًا.

وقال ابن القيم: من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زِيدَ في علمه، زِيدَ في تواضعه ورحمته، وكلما زِيدَ في عمله، زِيدَ في خوفه وحذره، وكلما زِيدَ في ماله، زِيدَ في سخائه وبذله، وكلما زِيدَ في قدره وجاهه، زِيدَ في قربه من الناس وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

٣-وجوب الإخلاص في التواضع .

قال السعدي -رحمه الله- (وما تواضعَ أحدٌ للهِ) تَنبيهٌ على حسنِ القَصد والإخلاص لله في تواضعه؛ لأن كثيرًا من النَّاس قد يُظهِر التواضع للأغنياء ليُصيب من دنياهم، أو للرؤساء لينال بسببهم مَطلوبه، وقد يُظهر التواضع رياءً وسُمعةً، وكل هذه أغراض فاسدةٌ، لا ينفع العبد إلا التواضع لله تقربًا إليه، وطلبًا لثوابه، وإحسانًا إلى الخلق؛ فَكمال الإحسان وروحه: الإخلاص لله.

٤-أمور تعين على التواضع :

التفكر في أصل خلْقة الإنسان:

إن تفكُّرَ الإنسان في أصْلِ نَشْأتِهِ، يُعِينهُ على أن يكون مِنَ المتواضعين، ولقد ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى في كتابه العزيز أصْلَ خِلْقَةِ الإنسان، ومراحل تكوينه في رَحِمِ أمه .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا) .

التفكر في مصير الإنسان بعد موته:

قَالَ جَلَّ شَأْنَهُ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّار) .

وقال سُبْحَانَهُ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

قال أَبُو الْأَحْوَصِ رَحِمَهُ اللهُ: افْتَخَرَتْ قُرَيْشٌ عِنْدَ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، فَقَالَ سَلْمَانُ: لَكِنِّي خُلِقْتُ مِنْ نُطْفَةٍ قَذِرَةٍ، ثُمَّ أَعُودُ جِيفَةً مُنْتِنَةً، ثم يؤتى بالميزان، فإن ثقلت موازيني، فأنا كريم، لكني وَإِنْ خَفَّتْ فَأَنَا لَئِيمٌ .

معرفة الإنسان قدرته الحقيقية:

إِنَّ مَعْرِفَةَ الإِنْسَانِ قَدْرَ عَظَمَةِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَدْرَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ شَخْصٌ ضَعِيفٌ فَانٍ، وَأَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْمُوجِبَةِ لِلرَّفْعَةِ وَالْكِبْرَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لا ثَبَاتَ لَهَا، بَلْ هِيَ أَعْرَاضٌ زَائِلَةٌ، وَيُدْرِكُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْبَقَاءِ وَالْكِبْرِيَاءِ، فَهَذَا لا يَتَمَرَّدُ عَلَى خَالِقِهِ بِاقْتِرَافِ الْجَرَائِمِ وَالآثَامِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُعَامِلُ النَّاسَ مُعَامَلَةً حَسَنَةً بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَلِين جَانِبٍ، وَلا يَتَكَبَّرُ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يُبَالِي بِمَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ الْكَاذِبَةِ، وَلا يَتَرَفَّعُ عَنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشْي مَعَهُمْ، وَإِجَابَةِ دَعَوَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ بِالْكَلامِ اللَّيِنِ، وَلا يَأْنَفُ مِن اسْتِمَاعِ نَصِيحَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ .

والله لو عرفت قدر نفسك يا عبد الله ما تكبرت، ولو عرفت يا عبد الله من أنت؟ وممَّ أنت؟ ومن أين خرجت؟ وما الذي تحمله الآن في بطنك؟ ما تكبرت!

قال بعضهم: عجبت لمن يدخل الحمام في اليوم مرتين، كيف يتكبر!

يا مدعي الكبر إعجابًا بصورته انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يابن التراب ومأكول التراب غدًا أقصر فإنك مأكول ومشروب

معرفة ثواب التواضع:

إنَّ معرفةَ الثواب الذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى للمتواضعين المخلصين مِنِ الوسائل التي تُعِينُ المسلمَ عَلى التواضع .

وقد تقدمت فضائل التواضع وأنه سبب للرفعة .

٦-قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- هذا الحديث: احتوى على فضل الصَّدقة، والعَفو والتَّواضع، وبيان ثمراتها العاجلة والآجلة، وأنَّ كل ما يَتَوهَّمه الْمُتَوهِّم من نقص الصدقة للمال، ومنافاة العفو للعِزّ، والتواضع للرفعة، وهْمٌ غالط، وظنٌّ كاذب، فالصَّدقة لا تُنقِص المال؛ لأنه لو فُرِض أنَّه نَقصَ من جهة، فقد زاد من جهاتٍ أُخَر؛ فإن الصدقة تُبارِكُ المال، وتَدفع عنه الآفات وتُنَمِّيْه، وتفتح للمتصدِّق من أبواب الرزق، وأسباب الزِّيادة أمورًا ما تُفْتَح على غيره، فهل يقابل ذلك النَّقص بعض هذه الثمرات الجليلة؟

وهذه الثلاث المذكورات في هذا الحديث: مُقدمات صفات المحسنين، فهذا محسنٌ في ماله، ودفع حاجة المحتاجين، وهذا محسنٌ بالعفو عن جنايات المسيئين، وهذا محسنٌ إليهم بحلمه وتواضعه، وحسن خُلُقه مع الناس أجمعين. وهؤلاء قد وَسِعوا النَّاس بأخلاقهم وإحسانهم، ورفعهم الله، فصار لهم المِحل الأشرف بين العباد، مع ما يَدَّخر الله لهم من الثواب .

٦٠٢ - وعن عِيَاضِ بنِ حمارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ (إنَّ اللهَ أوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أحَدٌ عَلَى أحَدٍ) رواه مسلم.

==========

(حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحَدٌ عَلَى أحَدٍ) أي: كي لا يتعاظم أحد على أحد.

(وَلاَ يَبْغِي أحَدٌ عَلَى أحَدٍ) أي: لا يظلم أحد على أحد.

١ - الحديث دليل على فضل التواضع ، وأنه سبَب العدلِ والأُلفة والمحبّة في المجتمع.

والتَّواضعُ: هو رِضا الإنسانِ بمَنزِلةٍ دونَ ما يَستَحِقُّها مُحتَسِبًا الأجرَ في ذلك عندَ اللهِ تعالى، وقدْ جاء عندَ مُسلمٍ: «وما تَواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعَه اللهُ»، ومِن دَواعي التَّواضعِ أنَّه يَمنَعُ صاحبَه مِن الفخرِ والكِبرِ على غيرِه؛ لا في نسَبٍ ولا مالٍ أو غيرِ ذلكَ، وأيضًا فإنَّ خُلقَ التَّواضعِ يَمنَعُ صاحبَه أنْ يَظلِمَ غيْرَه.

قال ابن تيمية: فنهى سبحانه على لسان رسوله عن نوعي الاستطالة على الخلق، وهي: الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغى، فلا يحل لا هذا ولا هذا. (الاقتضاء)

وقال رحمه الله: فبيّن أن التواضع المأمور به ضد البغي والفخر.

قال المناوي: (إن الله تعالى أوحى إلي) وحي إرسال وَزُعِم أنه وحي إلهام خلاف الأصل والظاهر بلا دليل والوحي إعلام في خفاء (أن) أي بأن (تواضعوا) بخفض الجناح ولين الجانب وأن مفسرة (حتى لا يفخر أحد) منكم (على أحد) بتعدد محاسنه كبراً ورفع قدر نفسه على الناس تيهاً وعجباً، قال ابن القيم: والتواضع انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق حتى لا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً بل والحق له. والفخر ادعاء العظم. (فيض القدير)

قال في مرقاة المفاتيح: وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْفَخْرَ وَالْبَغْيَ نَتِيجَتَا الْكِبْرِ : لِأَنَّ الْمُتَكَبِّرَ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ وَلَا يَنْقَادُ لِأَحَدٍ.

قال القرطبي: قال الله (واستوت على الجوديّ) لما تواضع الجودي وخضع عزّ، ولما ارتفع غيره واستعلى ذل، وهذه سنة الله في خلقه يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع.

قال ابن القيم: من أساء إليك؛ ثم جاء ليعتذر، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته، وتكِلّ سريرتهُ إلى الله تعالى.

٢ – الحث على التواضع: فالتواضع ليس مجرد خلق حسن، بل هو أمر أوحى الله به إلى نبيه ﷺ، مما يدل على عظيم منزلته.

٣–أن التواضع سبب للألفة والمحبة: فإذا تواضع الناس بعضهم لبعض زالت أسباب التنازع والتكبر، وانتشرت المودة بينهم.

النهي عن البغي والفخر.

٤–التحذير من الفخر لقوله (حتى لا يفخر أحد على أحد) .

٥–تحريم البغي والظلم لقوله (ولا يبغي أحد على أحد) ويشمل كل صور الاعتداء، سواء بالقول أو الفعل أو أخذ الحقوق أو التسلط.

٦–أن الكبر والبغي متلازمان غالبًا ، فمن استعلى على الناس احتقرهم، وقد يقوده ذلك إلى ظلمهم والتعدي عليهم.

٧–سلامة القلب من الكبر والعجب ، فالحديث يدعو إلى تزكية النفس من الأمراض التي تفسد الأعمال وتمنع قبول الحق.

٨–أن المجتمع المسلم يقوم على الاحترام لا الاستعلاء ، فلا مكان فيه للتفاخر أو الاستقواء، وإنما للتعاون والتراحم.

٦٠٣ – وعن أنس ﷺ (أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صبيَانٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وقال: كَانَ النبيُّ ﷺ يفعله) متفقٌ عَلَيْهِ.

==========

(مَرَّ عَلَى غِلْمَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ) قالَ الْحَافِظُ : وَأَخْرَجَ النَّسَائِيُّ حَدِيثَ الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ ثَابِتٍ بِأَتَمَّ مِنْ سِيَاقِهِ وَلَفْظُهُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُ الْأَنْصَارَ فَيُسَلِّمُ على صبيانهم ويمسح على رؤوسهم وَيَدْعُو لَهُمْ ، وَهُوَ مُشْعِرٌ بِوُقُوعِ ذَلِكَ مِنْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ .

١–الحديث دليل على مشروعية إلقاء السلام على الصبيان ، لأن ذلك يغرس في نفوسهم شعار الإسلام منذ الصغر .

قال النووي : وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى اِسْتِحْبَاب السَّلَام عَلَى الصِّبْيَان .

٢-فوائد إلقاء السلام على الصبيان :

دليل التواضع .

إفشاء للسلام .

تعليم للصبيان السنن .

نشر السنة .

رياضة لهم على تعليم آداب الشريعة .

قال القرطبي : هذا من خُلُقه العظيم ﷺ، وفيه تدريب للصغير وحض على تعليم السنن ورياضة لهم على آداب الشريعة فيه، فلتقتد. (التفسير)

وقال ابن بطال : وفي السلام على الصبيان تدريبهم على آداب الشريعة وطرح الأكابر رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب .

وقال المناوي : ليتدربوا على آداب الشريعة وفيه طرح رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب.

وقال ابن علان : (فسلم عليهم) أي تواضعاً وكسراً للنفس، فإن من طبعها الترفع عن خطابهم فضلاً عن مؤانستهم بالسلام.

٣-تواضعه ﷺ ، وَكَمَال شَفَقَته عَلَى الْعَالَمِينَ .

٤-بذل السلام للناس كلهم .

٥-ذم الكبر .

٦-على الأفاضل وكبار القوم أن يطرحوا رداء الكبر، ويلينوا جانبهم للناس .

٧-حرص الصحابة على متابعة الرسول ﷺ .

٨-تعليم الصبيان آداب الإسلام عمليًا، حتى ينشؤوا على إفشاء السلام.

٩-إدخال السرور على الأطفال، وإشعارهم بالاهتمام والاحترام.

١٠-نشر المحبة والألفة بين أفراد المجتمع، فإفشاء السلام سبب للمودة.

١١-الاقتداء بالنبي ﷺ؛ فقد نقل أنس رضي الله عنه هذا الفعل وطبقه في حياته.

١٢-التربية بالقدوة؛ فالأفعال أبلغ من الأقوال، ولذلك كان أنس رضي الله عنه يطبق ما رآه من النبي ﷺ.

١٣-تواضع القائد والمعلم؛ فمن كان في منزلة عالية لا يمنعه ذلك من مخاطبة الصغار والبدء بتحيتهم.

١٤-إثبات أن حسن الخلق يشمل جميع الناس، فلا يقتصر على الكبار أو أصحاب المكانة.

١٥-العناية بتربية الجيل الناشئ، لأن الاهتمام بالصغار أساس صلاح المجتمع.

١٦-أن من السنة إحياء السنن العملية، كما فعل أنس رضي الله عنه عندما علل فعله بقوله :كان النبي ﷺ يفعله .

١٧-جواز الاستدلال بالفعل النبوي في بيان الأحكام والآداب.

١٨-أن الصحابي قد يذكر سبب فعله ليبين أن مرجعه هو سنة النبي ﷺ.

١٩-أن التواضع لا ينقص من قدر صاحبه، بل يزيده رفعةً ومحبةً بين الناس.

٢٠-أن حسن التعامل مع الأطفال من أسباب غرس محبة الدين والسنة في نفوسهم.

٦٠٥ – وعن الأَسْوَدِ بن يَزيدَ، قَالَ (سُئِلَتْ عائشةُ رضي الله عنها مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺيَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قالت: كَانَ يَكُون في مِهْنَةِ أَهْلِهِ – يعني: خِدمَة أهلِه – فإذا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ) رواه البخاري.

==========

(**عنِ الأَسْوَدِ**) بن يزيد.

(**مهنة أهله**) أي: خدمة أهله.

١ – الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ .

قال ابن بطال: أخلاق النبيين والمرسلين عليهم السلام التواضع والتذلل في أفعالهم، والبعد عن الترفه والتنعم، فكانوا يمتهنون أنفسهم فيما يعن لهم ليسنوا بذلك، فيسلك سبيلهم وتقتفى آثارهم.

٢ – أن النبي ﷺ كان في خدمة أهل بيته .

وقد بوّب عليه الإمام البخاري بقوله: " بَابُ خِدْمَةِ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ ".

وقد وردت روايات أخرى صحيحة تبسط معنى هذه الخدمة.

عن هِشَام بْن عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ (أَنَّهَا سُئِلَتْ: "مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: " كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ) رواه أحمد .

وعَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ (سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: "كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدِمُ نَفْسَهُ) .

ولأحمد وابن حبان من رواية عروة عنها (يخيط ثوبه، ويخصف نعله) وزاد ابن حبان (ويرفع دلوه).

قال ابن بطال: وقول عائشة (كان في مهنة أهله) يدل على دوام ذلك من فعله متى عرض له ما يحتاج إلى إصلاحه؛ لئلا يخلد إلى الدعة والرفاهية التي ذمها الله وأخبر أنها من صفات غير المؤمنين فقال تعالى (فذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً).

٣ – فيه مدح عدم الكبر.

٤ – وفيه أهمية الصلاة عند النبي ﷺ، حيث كان ﷺ يعمل في خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة والصلاة من أهم وأعظم العبادات وأجلها بعد الشهادتين:

من ناحية الكمية: فقد فرضت أول ما فرضت خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس.

من ناحية المكان: فرضت في أعلى مكان في السماء.

وفرضت في أفضل ليلة في حق النبي ﷺ وهي ليلة الإسراء والمعراج.

٥–حسن العشرة بين الزوجين .

٦–التوازن بين حقوق الأسرة وحقوق العبادة

٧–أن خدمة الأهل ليست خاصة بالنساء .

٨–فضل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إذ نقلت للأمة أحوال النبي ﷺ داخل بيته، فانتفع المسلمون بذلك.

٩–حرص الصحابة على معرفة هدي النبي ﷺ في جميع أحواله ، فقد كانوا يسألون عن عبادته وأخلاقه ومعاملته داخل بيته ليقتدوا به .

١٠–القدوة العملية أبلغ من الكلام ، فقد علَّم النبي ﷺ أمته خدمة الأهل بفعله، وليس بمجرد التوجيه.

١١-إثبات بشرية النبي ﷺ ، فهو ﷺ كان يقوم بما يقوم به الناس من شؤون حياتهم اليومية، مع كمال عبوديته لله.

١٢-المبادرة إلى الصلاة عند دخول وقتها ، فلم يكن يؤخرها بسبب أعمال المنزل أو الانشغال بأمور الدنيا.

١٣-العمل المنزلي عبادة إذا صلحت النية ، فمساعدة الأهل والإحسان إليهم من الأعمال التي يؤجر عليها المسلم إذا قصد بها وجه الله.

١٤-أن خير الناس يبدأ إحسانه من بيته ، فمن أحسن إلى أهله كان ذلك علامة على كمال خلقه.

١٥-في الحديث رد على الكبر والتفاخر ، فمن كان رسول الله ﷺ يخدم أهله، فلا يليق بأحد أن يستنكف عن ذلك.

٦٠٦ – وعن أَبي رِفَاعَةَ تَميم بن أُسَيْدٍ ﷺ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَى رَسولِ الله ﷺ وَهُوَ يخطب، فقلت: يَا رسول الله، رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عن دِينهِ لا يَدْرِي مَا دِينُهُ؟ فَأَقْبَلَ عَليَّ رسولُ اللهِ ﷺ وتَرَكَ خُطْبَتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ فَأَتَمَّ آخِرَهَا) رواه مسلم.

==========

(وعن أَبي رِفَاعَةَ) العدوي الصحابي.

(فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ غَرِيبٌ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ) أي: أمور دينه، وتفاصيلها.

١ – الحديث دليل على كمال تواضعه ﷺ ورفقه بالمسلمين، وكمال شفقته عليهم وخفض جناحه لهم.

٢-قوله **(وَهُوَ يَخْطُبُ)** .

قال القرطبيّ رحمهُ اللهُ: يَحْتَمِل أن تكون تلك الخطبة للجمعة، أو لغيرها؛ إذ قد كان النبيّ ﷺ يجمع الناس لغير الجمعة عند نزول النوازل، فيخطبهم، ويعظهم.

٣ – قوله **(رجل غريب ...)** .

قال القرطبيّ رحمهُ اللهُ : قوله (رجلٌ غريبٌ ... إلخ) استلطافٌ في السؤال، واستخراجٌ حسَنٌ للتعليم؛ لأنه لَمّا أخبره بذلك تعيّن عليه أن يُعلّمه، وأيضًا، فإن هذا الرجل الغريب الذي جاء سائلًا عن دينه هو من النوع الذي قال فيه النبيّ ﷺ : إن أُناسًا يأتونكم من أقطار الأرض يطلبون العلم، فاستوصوا بهم خيرًا"، فإنه ﷺ كان لا يأمر بشيء إلا كان أوّل آخذ به، وإذا نَهَى عن شيء كان أوّل تارك له.

٤ – قوله **(وترك خطبته)** إنما فعل ذلك؛ لتعيّنه عليه في الحال، ولخوف الفوت، ولأنه لا يناقض ما كان فيه من الخطبة، ومشيه ﷺ وقربه منه في تلك الحال مبادرة لاغتنام الفُرْصة، وإظهار التّهَمُّم بشأن السائل.

٥ – الحديث دليل على جواز كلام الخطيب للحاجة من تعليم أو غيره.

قال القرطبيّ: أي: لَمّا فرغ من تعليم الرجل رجع إلى أسلوب خطبته المتقدّم، لا يقال: إن هذا الفعل منه ﷺ قطعٌ للخطبة؛ لِمَا قرّرناه من أن تعليم العلم، والأمر، والنهي في الخطبة لا يكون قاطعًا للخطبة، والجمهور على أن الكلام في الخطبة لأمر يحدُث لا يفسدها، وحَكَى الخطّابيّ عن بعض العلماء أن الخطيب إذا تكلّم في الخطبة أعادها.

٦ – حرص النبي ﷺ على تعليم الناس أمور دينهم.

٧ – جواز قطع الخطبة إذا كان الداعي أولى من الاستمرار.

٨ – المبادرة إلى المستفتي، وتقديم أهم الأمور فأهمها.

٩ – من قطع خطبته أتمها إذا عاد إليها، ولا يعيدها من أولها.

٦٠٧ – وعن أنس ﷺ (أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا، لَعِقَ أصَابِعَهُ الثَّلاَثَ وقال: «إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِط عنها الأَذى، وليأكُلْها وَلاَ يَدَعْها لِلشَّيْطان» وأمرَ أن تُسلَتَ القَصْعَةُ، قَالَ: «فإنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ البَرَكَة). رواه مسلم

==========

الحديث تقدم شرحه : ١٦٤ .

(**وأمرَ أن تُسلَتَ القَصْعَةُ**) أي : نتتبع ما بقي فيها من طعام ، ونمسحها بالإصبع ونحوها .

١–الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ في أكله، حيث كان من هديه أخذ اللقمة الساقطة وعدم تركها، كما يفعله بعض المترفين استكباراً.

٢ – الحديث دليل على استحباب أكل اللقمة الساقطة أثناء الأكل إذا لم تتلوث.

قال النووي: اسْتِحْبَاب أَكْل اللُّقْمَة السَّاقِطَة بَعْد مَسْح أَذًى يُصِيبهَا، هَذَا إِذَا لَمْ تَقَع عَلَى مَوْضِع نَجِس، فَإِنْ وَقَعَتْ عَلَى مَوْضِع نَجِس تَنَجَّسَتْ، وَلَا بُدّ مِنْ غَسْلهَا إِنْ أَمْكَنَ، فَإِنْ تَعَذَّرَ أَطْعَمَهَا حَيَوَانًا وَلَا يَتْرُكهَا لِلشَّيْطَانِ.

قالوا: إن في ترك اللقمة الساقطة إذا لم تلوّث بأذى إسراف.

٣ – قوله (وَلْيَأْكُلْهَا) قال القرطبيّ –رَحِمَهُ اللهُ–: هذا أمرٌ على جهة الاحترام لتلك اللقمة، فإنَّها من نِعَم الله تعالي، لَمْ تصل للإنسان حتى سَخّر الله فيها أهل السموات والأرض.

(وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ)؛ يعني: أنه إذا تركها، ولم يرفعها فقد مكَّن الشيطان منها؛ إذ قد تكبَّر عن أخذها، ونسي حق الله تعالى فيها، وأطاع الشيطان في ذلك، وصارت تلك اللقمة مناسبة للشيطان؛ إذ قد تكبَّر عليها، وهو متكبِّر، فصارت طعامه، وهذا كله ذمّ لحال التارك، وتنبيهٌ على تحصيل غرض الشيطان من ذلك. ... (قاله القرطبيّ)

٤ – الحديث دليل على استحباب لعق الأصابع قبل مسحها بالمنديل، وفيه الحكمة من ذلك.

٥ – قوله (... فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَة) هذا بيان العلة في استحباب لعق الأصابع.

قال النووي: مَعْنَاهُ وَاَللَّهُ أَعْلَم أَنَّ الطَّعَام الَّذِي يَحْضُرهُ الْإِنْسَان فِيهِ بَرَكَة وَلَا يَدْرِي أَنَّ تِلْكَ الْبَرَكَة فِيمَا أَكَلَهُ أَوْ فِيمَا بَقِيَ عَلَى أَصَابِعه أَوْ فِي مَا بَقِيَ فِي أَسْفَل الْقَصْعَة أَوْ فِي اللُّقْمَة السَّاقِطَة، فَيَنْبَغِي أَنْ يُحَافِظ عَلَى هَذَا كُلّه؛ لِتَحْصُل الْبَرَكَة، وَأَصْل الْبَرَكَة الزِّيَادَة وَثُبُوت الْخَيْر وَالْإِمْتَاع بِهِ، وَالْمُرَاد هُنَا – وَاَللَّهُ أَعْلَم – مَا يَحْصُل بِهِ التَّغْذِيَة وَتَسْلَم عَاقِبَته مِنْ أَذًى، وَيُقَوِّي عَلَى طَاعَة اللَّه تَعَالَى وَغَيْر ذَلِكَ.

٦–الحديث دليل على سلت القصعة، وهي الوعاءُ الَّذي يُوضَعُ فيه الطَّعامُ، والمعنى: أنَّه أمَرَ أنْ نَمسَحَها ونتتبَّعَ ما بقِيَ فيها مِنَ الطَّعامِ ونَأكُلَه، والقَصعةُ، هي الَّتي يَأكلُ عليها عَشرةُ أنفُسٍ، والمرادُ بها هنا: مُطلقُ الإناءِ الَّذي فيه الطَّعامُ؛ وذلك لأنَّنا لا نَدْري في أيِّ طعامِنا «البرَكةُ»، وهي الزِّيادةُ وثبوتُ الخيرِ والانتفاعُ به، والمرادُ بها هنا: ما يَحصُلُ به التَّغذيةُ وتَسلُمُ عاقبتُه مِن أذًى ويُقوِّي على طاعةِ اللهِ وغير ذلك.

٦٠٨ – وعن أَبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ قَالَ (مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الغَنَمَ» قَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ) رواه البخاري.

==========

الحديث تقدم شرحه : ٥٩٩ .

١–الحديث دليل على تواضُعِ النَّبيّ ﷺ لربّه، والتَّصريحُ بمِنَّتِه عليه وعلى إخوانِه من الأنبياءِ صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه وعلى سائرِ الأنبياءِ.

٢–أن رعي الغنم من سنن الأنبياء .

٦٠٩ – وعنه، عن النبيّ ﷺ قَالَ (لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إِلَيَّ ذراعٌ أَوْ كُراعٌ لَقَبِلْتُ) رواه البخاري.

==========

(**إلى كراع**) قال النوويّ –رحمه الله–: المراد به عند جماهير العلماء كُراع الشاة، وغَلَّطوا مَن حَمَله على كُراع الغميم، وهو موضع بين مكة والمدينة .

قال ابن هبيرة –رحمه الله– (والكُراع): كراع الشاة، وقد غلط قوم فقالوا: أراد به كُرَاعَ الغَمِيْمِ، وهو موضع؛ لأن الذراع يناسب الكراع، لا المكان .

قال ابن حجر : ... ولهذا ذهب الجمهور إلى أن المراد بالكراع هنا كراع الشاة.

(**الذراع**) الساعد، والكُراع: ما دون الركبة من الساق .

قال القسطلاني –رحمه الله– (لو دعيتُ إلى ذراع) بالذال المعجمة وهو الساعد وكان ﷺ يحبُّ أكله؛ لأنه مبادئ الشاة (أي مقدماتها) وأبعد عن الأذى (أو كُراع) بضم الكاف، وبعد الراء ألف، ثم عين مهملة ما دون الركبة من الساق «لأجبتُ» الداعي.

١–**معنى الحديث** : أنَّ النبي ﷺ كان لا يتأخر عن إجابة أي دعوة، وحضورها، والأكل من الطعام الذي يقدَّم له، سواء كان هذا الطعام كثيرًا أو قليلًا، وسواء كان هذا الطعام طعامًا فاخرًا نفيسًا، أو لم يكن كذلك، وكان ﷺ لا يرفض أي هدية تقدَّم إليه، ولو كانت يسيرة .

٢–الحديث دليل عظيم على تواضع النبي ﷺ .

فقوله (لو دُعيتُ إلى كُراع لأجبتُ ...) يعني: إذا دعاني أحد إلى ضيافة كُراع غنم لأجبتُه، هذا إظهار التواضع، وتحريض الناس على التواضع، وإجابة مَن يدعوهم إلى ضيافة.

قال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– لأنَّ الإجابة إلى كل منهما (أي: كُراع الشاة ...) فيها غاية التواضع والرحمة بالداعي، والخُلُق الحسن معه، وفي إظهاره ﷺ ذلك لحمل أمَّته على التواضع، بل غايته مع الكبير والصغير، وعلى تحمل مشقة ما يجبرهم ويسرهم، وعلى طرح التكلف، وعدم نظر الإنسان إلى نفسه وقدره، وما يليق به، وعلى الرضا من كل أحد بميسوره، وإنْ كان حقيرًا، وعلى أنَّه ينبغي للكبير ألا يأنف من إجابة الصغير وإنْ بَعُد منزله، وقلَّ طعامه .

وقال ابن بطال –رحمه الله– قال المهلب: معناه: التواضع، وترك التكبر والاستئلاف بقبول اليسير، والإجابة إليه؛ لأن الهدية تؤكد المحبة، وكذلك الدعوة إلى الطعام، لا يبعث على ذلك إلا صدق محبة الداعي وسروره بأكل المدعو إليه من طعامه، والتحبب إليه بالمؤاكلة، وتوكيد الذمام معه بها، فلذلك حض النبي ﷺ على قبول التافه من الهدية، وإجابة النزر من الطعام.

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– هذا الحديث يتضمن الندب إلى إجابة الدعوة، ويدل على حسن أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه، ويندب إلى قبول الهدية .

وقال العيني –رحمه الله– في هذا الحديث: دليل على حُسن خُلقه ﷺ وتواضعه وجبره لقلوب الناس، وعلى قبول الهدية وإن كانت قليلة، وإجابة مَن يدعو الرجل إلى منزله، ولو علم أن الذي يدعوه إليه قليل.

٣–قوله (**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ**) لأن المقصود إجابة دعوة المسلم والتآلف والتحاب .

قال الكوراني –رحمه الله– (لو دُعيتُ إلى كراع لأجبتُ) لأن الغرض ليس أكل الطعام، بل رعاية الأخ المؤمن.

وقال المناوي –رحمه الله– (ولو دُعيتُ إليه) أي: لو دعاني إنسان إلى ضيافة كُراع غنم «لأجبتُ»؛ لأن القصد من قبول الهدية، وإجابة الدعوى: تأليف الداعي، وإحكام التحابب، وبالرد يحدث النفور والعداوة، ولا أحتقر قلَّته .

٤–**قال ابن حجر** –رحمه الله– وخصَّ الذراع والكراع بالذكر ليجمع بين الحقير والخطير؛ لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها، والكراع لا قيمة له .

٥–قوله (**ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلتُ**) هذا يدل على جواز القليل من الهدية .

٦– وإنما حضَّ على قبول الهدية وإن قلَّت؛ لما فيه من التآلف .

٧–**قال ابن بطال** –رحمه الله–: هذا حضّ منه لأمَّته على المهاداة والصِّلة والتأليف والتَّحابّ، وإنما أخبر أنه لا يحقر شيئًا مما يُهدى إليه، أو يُدعى إليه؛ لئلا يمتنع الباعث من المهاداة لاحتقار المهدى، وإنما أشار بالكُراع وفرسِنِ الشاة إلى المبالغة في قبول القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الكراع والفرسن ومُهاداته؛ لأن أحدًا لا يفعل ذلك .

٦١٠ – وعن أنس ﷺ قَالَ (كَانَتْ ناقةُ رسول الله ﷺ العضْبَاءُ لاَ تُسْبَقُ، أَوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعودٍ لَهُ، فَسَبَقَهَا، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ، فَقَالَ: حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ). رواه البخاري

==========

(**كَانَتْ ناقةُ رسول الله ﷺ العضْبَاءُ**) بفتح العين المهملة، وسكون الضاد المعجمة، بعدها موحّدة، ومدّ– كانت تلقّب به ناقة النبيّ ﷺ؛ لنجابتها، لِشَقّ أذنها.

قال ابن الأثير: كانَ اسمُ ناقَتِه العَضْبَاء، هُوَ عَلَمٌ لَهَا منْقُول مِنْ قَوْلهم: ناقَةٌ عَضْبَاء: أَيْ مَشْقُوقة الأذُن، وَلَمْ تكُنْ مَشْقُوقةَ الأذُن. وَقَالَ بعضُهم: إِنَّهَا كانَت مشقُوقَة الأُذن، وَالْأَوَّلُ أكثرُ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: «هُوَ مَنْقول مِنْ قَوْلِهِمْ: ناقَةٌ عَضْبَاء، وَهِيَ القَصِيرَةُ اليَدِ. انتهى

(**لاَ تُسْبَقُ، أَوْ لاَ تَكَادُ تُسْبَقُ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ**) قال الحافظ: لم أقف على اسم هذا الأعرابيّ بعد التتبّع الشديد .

(**عَلَى قَعودٍ لَهُ**) بفتح القاف–: ما استحقّ الركوب من الإبل. قال الجوهريّ: هو الْبَكْرُ حتى يُركب .

فَسَبَقَهَا) أي : سبق ذلك الأعرابيّ بقَعُوده العضباء. وفي رواية ابن المبارك، وغيره، عن حميد، عند أبي نُعيم (فسابقها، فسبقها) وفي رواية شعبة (سابق رسول الله ﷺ أعرابيّ) .

(**فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ**) أي : حتى عرف النبيّ ﷺ أثر المشقّة ظهر على وجوههم .

فَقَالَ) ﷺ .

(**حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ وَضَعَهُ**) سبحانه وتعالى .

١–الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ .

٢-الحث على التواضع .

٣- قوله (من الدنيا) دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله. كما قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات).

٤ - فيه وصف الدنيا كما قال تعالى (إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام).

٥ - حقارة الدنيا وعلى المسلم أن يعرف ذلك فيجتهد في أمور الآخرة.

٦- التزهيد في الدنيا فلا ينبغي أن تكون محلّ جُلّ اهتمام المرء فهي متقلّبة لا يدوم صَفْوُها ولا عِزُّها، قال العلاّمة المالكي ابن بَطّال : في الحديث هَوَانُ الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأنّ كل شيء هيّن عند الله فهو في محل الضّعَة.

٧-هوان الدنيا على الله تعالى.

٨ - ترك المباهات والمفاخرة.

٩ - أن أمور الدنيا ناقصة.

١٠ - تسلية لطلاب الآخرة.

١١ - تحذير لطلاب الدنيا.

١٢ - حسن خلق النبي ﷺ من التواضع وتطييب نفوس أصحابه.

١٣ - أنه لا يرتفع شيء من الدنيا لا انخفض، فإذا صاحب ذلك كبرياء وتعال فإنه يكون انخفاض مع عقوبة.

١٤ - أن النبي ﷺ بشر لا يعلم الغيب.